سياسة "الفيتنمة"!

صحافة الغرب ضدنا... لماذا ؟

حين تلقينا ، في « الهدف » ، دعوة من كلية الصحافة في جامعة ميتشغن ، للمشاركة في حلقة « الحوار الاعلامي بين الشرق والغرب » ، التي عقدت في فندق البستان في بيت مري الاسبوع الماضي ، وقفنا لحظة في اسرة التحرير لنقرر .

وكان الرأي الجماعي هو الا ننتدب من يشارك في هذه الحلقة ، اذ رغم ايماننا بان الحوار يمكن ان ينتج عنه احيانا ما يفيد ، الا انه احيانا اخرى ـ وفي ظروف معينة ـ يصبح اداة في يد الخصم لاعطاء وجهات نظره صفة الشرعية ، او ليجعل منها اساسا للحوار .

وبالنتيجة ، فان الحوار القائم على اساس فرضه الخصم ، مهما ظهر حرا ، فانه يظل يخدم في نهاية التحليل الخط العام للفكر السائد لدى ذلك الخصم ..

ان هذه الحقيقة تظهر اكثر ما يكون في حقل الاعلام بالذات ، فطوال السنوات الماضية تعلمنا ان كبار محرري الصحف الغربية الدائرة في فلك القوى الحاكمة (بما فيها القوى التي تلعب دور المعارضة ، ولكن التي تنتسب لنفس الطبقات السائدة) يصرون على التأكيد بان انحياز صحفهم لاسرائيل ، وللرجعيات العربية ، هو نتيجة لتقصيرات عربية تقنية في حقل الاعلام ، ونتيجة لقدرات اسرائيلية وصهيونية في هذا الحقل ، لا اكثر ولا اقل .

ان « الاقناع » هنا مستحيل ، ليس لان كبار المحررين هؤلاء عنيدون كاشخاص ، او غير قابلين على صعيد شخصي لقبول هذه الفكرة او تلك ، بل لان الخطوط التي تلتزم بها صحفهم لا علاقة لها من الناحية العملية بقناعاتهم الشخصية .. او ـ اذا اردنا الدقة ـ ان قناعاتهم الشخصية تكون قادرة (او مرغمة) على التكيف مع المصالح التي يندرجون ضمنها في عملهم الاعلامي .

ان تجربة طويلة ، مستندة على الاحتكاك المباشر والمتواصل بعدد لا يحصى من رجال الاعلام في العالم ، جعلت هذه الحقيقة مسألة بدهية لدى جميع الرفاق في « الهدف » ، وقد كنا على يقين بان حلقة بيت مري ستمنح شهادة حسن سلوك ـ بصورة غير مباشرة ـ لصحافة العالم الاكثر عداء لمطامحنا ، والتي لعبت دورا اساسيا في تأليب غالبية قطاعات الرأي العام في اميركا واوروبا الغربية ، واحيانا على اسس عنصرية ، ضد نضالاتنا المشروعة ، ومثلنا ، وحقوقنا البديهية ..

وكنا على يقين بانه حتى لو استطاعت بعض الاصوات الشجاعة ان ترتفع في الحلقة وان تضع اصبعها على الجرح ، وفي مكان الالم الحقيقي ، فان الحلقة ستكون قادرة على استخدام مثل هذه الاصوات لتثبت مدى سعة ورحابة افاقها ، وحرية القول فيها ، وليس للوصول الى استنتاجات تختلف جذريا عن تلك التي هيمنت على الاعلام العربي طوال نصف القرن الماضي .

وهذا ما حصل فعلا !

لقد وقف الكثيرون ليكرروا تلك المعزوفة التافهة ، التي تقول ان انحياز صحف الغرب لاسرائيل سببه تقني بالدرجة الاكبر ، ان الدول العربية لا تتعامل مع جوازات سفر مختومة من قبل العدو ، وان للدول العربية رقابة ، وان السفارات العربية لا تزور الصحفيين وتوجه لهم الدعوات ، وان المسألة كلها مسألة معلومات ناقصة ، لا اكثر ولا اقل !

اهذه هي المسألة ؟

هل يمكن ان نسمح لهذا التبرير الاحتيالي بتغطية حقيقة الامر ؟

هل حقا ان مواقف الصحف من قضية معينة تتوقف على مدى التسهيلات التي تمنحها حكومة من الحكومات ؟ هل « المعرفة » الاعلامية في هذا العصر محدودة بهذه الحدود الساذجة ؟

انه من المؤسف حقا ان احدا من الصحافيين الاجانب (ومعظم العرب) لم يقف داخل الحلقة ليمزق تلك اللياقات الرخيصة ، ويقول بكل وضوح بان المسألة هي مسألة صحافة مرتزقة ، تخدم الطبقات السائدة ومصالحها ، وانها في سبيل ذلك تستخدم التضليل ، والعنصرية ، وكل اسلحة البرجوازية الاخرى .

لننظر الى التوصيات التي اصدرتها الحلقة : انها كلها ، بلا استثناء ، تتعامل مع الامر وكأنه نتيجة لاخطاء فنية ـ بل ان بعض هذه التوصيات يحتوي من الصفاقة كمية مخجلة ، اذ انها تخاطب الصحافة العربية وكأنها بالطبيعة خاضعة لوصاية الصحافة الغربية ، ومستقبلها مرهون بمدى نجاحها في سلوك نفس خطى تلك الصحافة ، ومدى براعتها في تقليدها !..

قلت لرئيس تحرير صحيفة يومية من اوروبا الشمالية ، زارنا في « الهدف » اثر انتهاء الحلقة :

ـ « هل ستغير صحيفتك ، ولو جزئيا ، موقفها المؤيد بلا حدود لاسرائيل ، اثر حضورك هذا المؤتمر ؟ »

فكر قليلا ، واجاب بصراحة : « كلا ! لا اعتقد ذلك » .

وطوال نصف ساعة من الجدال معه ، لم افهم قط كيف يمكن لاي صحافي عربي ان يتوقع من مثل هؤلاء ان يتغيروا «بالاقناع» اذ ليست المسألة ابدا مسألة « ندرة المعلومات » او مسألة جهل . ربما تكون كذلك عندما يتعلق الامر بالبشر العاديين ، ولكنه ليس كذلك ابدا عندما يتعلق الامر برؤساء التحرير وكبار المعلقين .

وحتى كلمة « الموضوعية » التي يختفي وراءها كل المنحازين ، تفقد قوتها السحرية التي تدهش صغار المثقفين ، وبعض سذج الليبراليين ، وتصبح بعد لحظات كذبة اخرى من اكاذيب الثقافة السائدة المستميتة في الحفاظ على هيمنتها ..

ان « حلقة فندق البستان » هي تنازل آخر امام الهجمة المعادية ، في احد اكثر اشكالها خبثا ، وتبدو لنا وكأنها محاولة لتكريس أبوة الصحافة الغربية ، الناطقة بلسان الامبريالية على مختلف درجاتها واشكالها ، وتعميم اسلوبها المنحط والمنحاز في التعامل مع قضايا البشر ..

وبالنسبة لنا ، فان هذا شيء لا نرفضه فحسب ، بل نحاربه بكل قوتنا !

□ □ □

□ كان الاصدقاء يقولون للشهيد علي طه : « فيك رائحة القدس ، ولا نستطيع تصورك خارج القدس ، وحين نراك لا نستطيع الا ان نتذكر القدس » .

كان رجلا باسلا ، ضحوكا ، شهما . وكان الوطن بالنسبة له شيئا يشبه التنفس، وكان فوق ذلك كله وفيا ، وشجاعا ، ويعرف ماذا يريد .

نحن افتقدناه ، وبدا لنا مكانه فارغا تماما ، على ان استشهاده جاء في قلب الوطن ، وفي قلوبنا جميعا ، وقد انزرع ـ حيث كان يقف ـ مئات من الرجال ، ونحن نعرف ، كما كان يعرف ، ان موته ليس الا جزءا من هذا الانبثاق الكبير ، الذي نسمع دويه يهدر في ايامنا المقبلة .

كان علي طه يقول ضاحكا ، حين يشير الى رجل وقع في منتصف الطريق ، او تساقط على هامشه : « رجل دفتره فاضي » و « رجل كازه خلص » ، ونحن لم نسمع تعابير اكثر دقة لوصف اولئك الذين خبت في قلوبهم تلك الشعلة المقدسة ، هذه الشعلة التي يزيدها ضراما الموت الكبير لرجال مثل علي طه ..

فوداعا يا « ابا نضال » : ان الطريق الذي سرت عليه يزدحم بالرفاق ، ولا تعوي فيه وحشة البرد ، ونحن الذين نحس بالحزن الاكبر ، الحزن الخلاق ، الذي يحنو في اعماقه على كل افراح الناس المقبلين على الحياة ..

حزن الثوار عندما يزرعون في الارض بذور الايام القادمة ..

غسان كنفاني